سيدي بلعباس المدينة والتاريخ (1830–1870)

Sidi Bel Abbes : city and history(1830-1870)

عسال، نورالدين
جامعة جيلالي ليابس–سيدي بلعباس
assalnoureddine22@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/04/27 تاريخ القبول: 2022/09/17 تاريخ النشر: 2022/11/30

ABSTRACT :

Local historical studies are considered one of the most important topics in the life of human societies due to the availability of monographic research in its temporal and spatial context, through the investigation of the events and facts experienced by the different regions. It was colonialism that created it, and we will try to address the role of the people of the region in resisting the French occupation.

Keywords: sidi bel abbes ; city ;history ; colonization ; ben ameur ; bredeau ; settlers ; napoleon3 the four doors

الملخص:

تعتبر الدراسات التاريخية المحلية من أهم المواضيع في حياة المجتمعات الإنسانية لما توفره الأبحاث المونوغرافية في إطارها الزمني والمكاني وذلك من خلال التحري في الإحداث والوقائع التي عاشتها المناطق المختلفة، ومن هنا تأتي هذه الدراسة حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس التي سنحاول التطرق إلى نشأتها والتي يعتقد البعض من أن الاستعمار هو الذي أوجدها، كما سنحاول التطرق إلى دور سكان المنطقة في مقاومة الاحتلال الفرنسي.

الكلمات المفتاحية: سيدي بلعباس؛ المدينة؛ التاريخ؛ الاستعمار؛ المقاومة؛ بنو عامر؛ بردون؛ المستوطنون؛ نابليون الثالث؛ الأبواب الأربعة.

مقدمة:

لا شك أن الباحث في التاريخ يعتمد في كتاباته على مختلف المصادر المادية واللامادية والمكتوبة والشفوية وذلك للوصول إلى تحقيق معرفة تاريخية للماضي وفق نظرة موضوعية، ولعل من أهم هذه المصادر المعالم الأثرية والمعمارية التي تمثل عند كل مجتمع الذاكرة الجماعية التي تربط بين عناصر المجتمع ،وتعتبر المدينة ظاهرة قديمة عرفها الإنسان، وعلى هذا الأساس فإن الجزائر وكباقي مناطق العالم ظهرت بها الكثير من المدن سواء في التاريخ القديم أو الحديث أو المعاصر، ومن هنا جاءت دراستنا حول أحد المدن التي تأسست هلال الفترة الاستعمارية ألا وهي مدينة سيدي بلعباس التي اعتبرها العديد من المؤرخين النموذج المثالي في تجسيد سياسة الاستيطان الاستعماري الأوربي في الجزائر، بذلك يعالج الموضوع إشكالية هامة تتعلق بتاريخ المنطقة، فهل ارتبط وجودها بالاستعمار الفرنسي؟ أم أن تاريخ المنطقة يعود إلى ما قبل تاريخ الاحتلال؟ وما هو الدور الذي لعبه سكان المنطقة في مقاومة الاستعمار إلى جانب الأمير عبد القادر؟ لماذا أصرت القيادة العسكرية للجيش الفرنسي من بناء المدينة؟ أكان ذلك لأهداف عسكرية أم إستراتيجية أم اقتصادية؟

أما أهداف الدراسة تتلخص فيما يلي:

-وجود المنطقة قديم منذ التاريخ الروماني.

-سعي فرنسا الاستعمارية من وراء بناء المدينة توطين العنصر الأوروبي وطرد السكان المحليين

-التحكم في محاور الطرقات بالنظر إلى احتلال المنطقة موقعا استراتيجيا هاما يربط بين الشمال والجنوب والشرق والغرب لمواجهة المقاومة الشعبية التي امتدت حتى الحدود المغربية.

أما المنهج المتبع فقد اتبعنا المنهج التاريخي التحليلي من خلال الاعتماد على مجموعة من المصادر الفرنسية والدراسات الوطنية باللغتين وذلك للمقارنة بين المعلومات المتضاربة أحيانا.

1- سكان سيدي بلعباس والاحتلال الفرنسي:

تميزت فترة 1830 – 1847 أساسا بالغزو العسكري وتشجيع حركة الاستيطان الأوروبي في الوطن، والبحث عن الطريق الأمثل لتسيير هذا البلد. فتم تعيين في07 جويلية سنة 1833م اللجنة الإفريقية من أجل وضع تقرير حول ما إذا كانت فرنسا تتخلى عن هذا الاحتلال الجديد أم تستمر فيه، وفي جوان 1838 أعلنت السلطات عن نيتها في استمرار احتلال الجزائر خاصة بعد فشل الجيش الفرنسي في احتلال "البليدة سنة 1830م، والمدية في جويلية 1831م، وهزيمتها بقسنطينة، إضافة إلى إبرامها معاهدة تافنة[1].

أكد هذا الفشل للاستعمار أن المقاومة مازالت طويلة وعنيفة. ثم جاء احتلال النقاط الهامة على الساحل مرسى الكبير 1830م، قسنطينة وعنابة مارس 1832م، أرزيو، مستغانم وبجاية 1833م تلمسان في جانفي 1836م، قسنطينة في أكتوبر 1837م، شارشال، المدية وملیانة 1840م.إلا أن صعوبة احتلال هذه المناطق أفهمت الاستعمار أن من المستحيل عليه التفكير في تثبيت سيطرته على منطقة واحدة دون أن تظهر بها انتفاضات جديدة[2].

مع بداية الاحتلال يمكن ملاحظة قدوم بعض المهاجرين الجدد إلى الجزائر فاعتبروا وسطاء بين التجارة والجيش خاصة للأشياء الضرورية للاحتلال. ابتداء من سنة 1832 بدأت في الظهور معالم التعمير بمناطق "دالي إبراهيم" "القبة" والعاصمة، مع التأسيس الرسمي للمركزين الأوليين الذي يعود إلى تاريخ 22 افريل 1835م فترة تأسيس أيضا مدينة بوفاريك.

ظلت التجارب الأولى للتعمير محدودة في ضواحي العاصمة، أما وهران و قسنطينة فلم يبدأ أي عمل استيطاني في هذه الفترة ما عدا تأسيس مدينة سكيكدة – **Philippe Ville** في 06 أكتوبر 1838م التي قام بتأسيسها الماريشال "سيلفان شارل فالي" **Sylvaine charlesValée** (1773-1846)لتسهيل الاتصال بين الداخل والساحل،وفي 19 ابريل 1836 قام الماريشال" برترود كلوزال" **Bertraud Clauzel**(1772-1842)بتسليم سندات مؤقتة حول الأراضي تضمن لكل عائلة امتياز لزراعتها و غرسها في وقت محدد، وابتداء من الفترة الممتدة بين 1840 – 184حاولت السلطات الاستعمارية تحاول ترسيخ و تثبيت الاحتلال لتصبح البلاد أرضا فرنسية نهائيا، والاستمرار في احتلال مناطق أخرى تزامنا مع اندلاع عدة ثورات و انتفاضات في مختلف مناطق الجزائر[3].

منذ مجيء توماس روبار بيجو"Thomas Robert Bugeaud (1784-1849) إلى العاصمة دخل الاستعمار فترة جديدة، فترة الاستثمار التي تعتبر أساسية لاستعمار الجزائر. فقد أدى القرار الحكومي الصادر في 18 أفريل 1841 إلى تخصيص نظام التنازلات المجانية، بشرط استثمارها و السكن بها، أو تثبيت عائلة أخرى في مكانه. ابتداء من سنة 1841 شرع الجنرال في تعمير منطقة الغرب، وشكل توسع الغزو بمقاطعة وهران، معسكر ثم تلمسان حدودا أخرى للاحتلال أي نقاط أخرى للدعم و التموين للوحدات العسكرية الموجودة في سبدو، فرندة، تيارت، والولي الصالح سيدي بلعباس الذي سوف يمنح اسمه لمدينة جديدة تخيم فيها القوات الاستعمارية ليس بعيدا عن قبة سيدي بلعباس بالقرب من تعرجات مكرة المتحول[4].

بعد أشهر من احتلال قوات "لويس اوغست فيكتور غيزن دوبرمون" De bourment Louis August victor ghaisne (1773-1846) للجزائر، أعترف باي

وهران بارتباطه بفرنسا وبدأ في تسيير أموره تحت حماية الاستعمار قبل أن ينتقل إلى سوريا. إلا أن مقاومة الأمير عبد القادر (1832– 1847) بدأت تمتص كل نشاطات الاستعمار في المنطقة خاصة بعد انضمام عدة قبائل لمقاومته، أهمها قبائل بني عامر، التي بايعت الأمير عبد القادر في 22 نوفمبر 1832، وقبلته سلطانا و أميرا عليها.و في كلمة الأمير المشهورة التي ألقاها بمناسبة تأسيس الدولة الجزائرية جاء فيها:"**إن أهل معسكر، وشرق و غرب غريس وخلفائهم، بني شقران البرجيين، و بني عباس، واليعقوبيين، و بني عامر و بني مجاهد. و غيرهم قد وافقوا بالإجماع على تعييني حاكما على بلدي، والتعهد بإتباعه في الانتصار والهزيمة...**[5].

شارك فرسان بني عامر في أهم المعارك التي خاضها الأمير عبد القادر خاصة التي انتصر فيها كمعركة المقطع سنة 1835،والمعركة التي هزم فيها القائد فراسوا جوزاف لوسيان مونتانياك Francois Joseph Lucien Montagnac(1803-1845)،وقد أكد الكسندر دوما[6] **Alexandre Dumas** في تقرير في 14 ابريل 1838 أن قبيلة هاشم وبني عامر هما القبيلتان الوحيدتان اللتان قدمتا الدعم للأمير عبد القادر[7]،وتعتبر حملة الماريشال"كلوزال" Clauzel سنة 1835،أول حملة في منطقة بني عامر فقد سيطرت قواته على معسكر عاصمة الأمير عبد القادر، ثم تلمسان، لكنها لم تستطع أن تخضع الأمير عبد القادر و قواته مما أرغمها على توقيع معاهدة تافنة التي أهانت الاستعمار كثيرا، و التي لم تشرف عليها حكومة "لويس فيليب "**Loui Philippe** و لا "بيجو"، وقد عاد الصراع بين الطرفين سنة 1842 بعدما فسح ملك المغرب المجال أمام الأمير عبد القادر الذي كان حليفه لمدة طويلة.

أنشأت هيئة الأركان الفرنسية في هذه الفترة في حدود التل، والهضاب العليا نقاط دعم و تموين للجيش تسمى مراكز التخزين**Postes Magazins** كسبدو، فرندة، تيارت و

الضاية، أما المسار بين وهران و الضاية فيحتوي على عدة محطات، أهمها واحدة ضرورية قرب الولي الصالح سيد بلعباس الذي يقع في أعلى تلة على المكرة في أرض قبيلة العمارنة (فرقة من قبيلة أولاد إبراهيم)،حيث تقرر وضع هذه النقطة مركز دائم محاط بحصون من تراب، و مهام القوات العسكرية به حراسة قبائل بني عامر في المنطقة، وفي 12 جوان 1843 قام الاحتلال بخطوة أخرى في المنطقة فحول هذه النقطة المحصنة إلى مركز عسكري، ووصل الجينرال "ماري ألفونسو بيدو" **Bedeau Marie Alphonse**إلى عين المكان أين بدأ الأشغال في الضفة اليمنى لواد مكرة وأصبح المعسكر يسمى بسيدي بلعباس[8].

2- سيدي بلعباس البوزيدي:

لا شك أن الباحث يعتقد منذ الوهلة الأولى أمن منطقة سيدي بلعباس هي مدينة حديثة،بينما تؤكد المعلومات التاريخية أنها ضاربة في التاريخ،حيث عرفت الاحتلال الروماني خاصة في منطقة تسالة وذلك منذ القرن الثالث الميلادي،وهذا حسب المخلفات والنقوش التي عثر عليها بضواحي المدينة،كما ذكرت المصادر التاريخية أنها تعرضت للتخريب على يد بني مرين خلال حروبهم ضد الزيانيين[9]،أما عن سكانها فقد ذكر أبن خلدون أنهم من قبائل مديونة التي انزاحت بعد أن قل عددها وتراجعت قوتها[11] ،ولم يكن هذا الاحتلال عسكريا فحسب بل صاحبه استعمارا اقتصاديا لاستغلال ثروات المنطقة لتموين الاقتصاد الروماني[12].

يرجع نسب الولي الصالح سيدي بلعباس إلى النبي عليه الصلاة و السلام، غادر جده سيدي البوزيدي مكة المكرمة ليلتحق بالجزائر، سافر خلال سنوات عديدة عبر خلالها الحجاز، مصر، ليبيا، و تونس و استقر في أفلو (جنوب الجزائر). توفي هناك في عمره 144 سنة بعدما خلف أربعة أطفال .سار أحد أبنائه المسمى مثل أبيه "سيدي علي البوزيدي" مع قافلة إلى فاس والتحق بمدرسيه بعاصمة المغرب. بعد سنوات أصبح الطالب أحد المنافسين لمعلميه، ثم التحق

كمدرس بـــ تلمسان حتى قيل أن سلطان المغرب كان يقطع المسافات ليكون أحد مستمعيه، و يقال أيضا حسب "ليون أدو" أن المنطقة التي كان يمر عليها يعمها الأمن و السلام،و توفي في حوالي 1780م سيدي بلعباس حيث دفن على تله في قبة مكرة[13] ،وأنه بإمكانه أن يعتكف لدراسة الكتب الدينية المقدسة ،لمن الله جعل منه خادما للدفاع عن الإسلام والتضحية في سبيله ،فكان يحث قبائل بني عامر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد كللت كل أقواله وأفعاله بالنجاح ،حيث كان رؤساء القبائل يأتونه طلبا لزيارتهم والمكوث عندهم ،ويعرضون عليه الزواج من بناتهم ،وكانت كل منطقة يزورها إلا ويعمها الخير والسعادة والسلام وينتشر فيها نور العلم[14].

لقد حاول الاستعمار الفرنسي القضاء على التاريخ القديم والحديث للمنطقة التي اعتبرها نتاج المشروع الاستعمار، بيد أن المدينة ارتبطت بوجود الولي الصالح بحكم أن المتعارف عليه في الجزائر ارتباط المدن بالأولياء الله الصالحين ،فقد ظل سيدي بلعباس البوزيدي ملهم القبائل المحلية، ومن هنا يمكن أن نعرف لماذا رفض نابليون الثالث إطلاق اسمه على المدينة ،فحينما زارها في 16 مايو 1865 أقترح عليه مجلس سناتوس كوسولت تسمية المدينة باسمه نغير أنه رفض وطالب بإبقاء الاسم القديم مع إضافة اسمه لتصبح تحت تسمية سيدي بلعباس – نابليون[15] ،كما أكد ليون أدو أن سيدي بلعباس كانت موجودة قبل الغزو الفرنسي[16].

3–تأسيس المدينة:

تكون حول المركز العسكري مجمعا سكانيا صغيرا من عشرات المنازل،وأول من استقر بالمنطقة هم جنود اللفيف الأجنبي و الصيادون.كان رد فعل قبائل المنطقة عنيف إثر تواجد الجيش الفرنسي،فقد شنت هجوما عسكريا مسلحا و تعرض حصن سيدي بلعباس إلى هجومين في سنة 1843،الأول حينما حاول الأمير النزول في سهل مكرة للتأثير على القبائل

الموجودة فاصطدمت قواته بقوات العقيد "جيري" **Gery**في أوت 1843، ثم مع الرائد "برال "**Barral** في أكتوبر 1843م. أما الهجوم الثاني الذي تعرض له الحصن فهو هجوم أولاد إبراهيم في 30 جانفي 1845 [17].

كان العقيد جوزيف فينوي" **Joseph Vinoy**(**1800– 1880**) **مع** بداية سنة 1845 قائدا الحامية العسكرية بسيدي بلعباس و بحوزته كتيبة تحت قيادة الرائد " بونسار" **Ponsard** و سريتين من الصبايحية **Spahis**و بعض القومية،وفي غياب قائد الحامية و قواته الذين كانوا في مهمة تأديبية لأولاد سليمان،وعلى الساعة العاشرة من صباح 30 جانفي 1845 مهاجمت قبيلة العمارنة (أولاد إبراهيم) المخيم العسكري ،حيث ذكر "بول أزان "**Paul Azan** أن عدد المهاجمين قدر بحوالي ستين من الأهالي أمامهم خمسة أو ستة أطفال يذكرون بعض الأدعية الدينية جاءوا ليقدموا شكوى، هذا الجو المشحون بعدم الاستقرار أدى " لويس جوشولت لاموريسيار " **Lamoriciére Louis Juchault de** (1806-1865)إلى مراسلة الجنرال "جون الكسندر بورجولي " **Jean Bourjolly Alexandre** (1791-1865) بمستغانم في 04 فيفري 1845،يحذره فيها من هجمات الأهالي المفاجئة إذ كتب قائلا:" **علينا أن ننتظر كل شي من العرب، حينما يكون التعصب، علينا أن نكون على استعداد حتى وسط السكان الذين يبدو لنا أنهم خاضعين لنا** "[18].

وكرد فعل الاستعمار الفرنسي قام العقيد"فينوي" Vinoy بمعاقبة قبيلة العمارنة،و أولاد ابراهيم ، فقتل الزعماء بدون محاكمة،و دمر المنازل و صادر الممتلكات وطبق العقوبات الجماعية، فالقمع الذي رافق الهجوم على المخيم العسكري دفع القبائل للهجرة نحو المغرب الأقصى ابتداء من سنة 1842 و على رأسها قبيلة بني عامر التي غادرت المنطقة سنة 1845 خاصة أولاد إبراهيم العمارنة، أولاد سليمان، دوي عيسى Doui-Aissa أولاد سيدي على

بن يوب، أولاد بالغ، جعافرة، أولاد سيدي خليفة، المحازج M'hazedj و غيرهم .إلا أنها عادت إلى أرض الأجداد بداية من سنة 1847 إلى غاية 1849، لكنها عانت من بعض الصعوبات بالمغرب الأقصى. فبمجرد وصول قبيلة "المحازج" تم إبعادهم عن الأمير عبد القادر، واستغلت الإدارة الفرنسية الفراغ الذي تركته قبائل بني عامر المهاجرة لمصادرة أراضيها تطبيقا للقرار الصادر عن الحاكم العام " دوك ديسلي " **Duc Disly** في 18 أفريل 1846 ،وهذه العمليات التي لجأت إليها سلطات الاحتلال بالمنطقة دخلت في إطار بناء المراكز الاستيطانية الأولى .

اهتم الماريشال "بيجو" في تطبيقه للنظام الاستيطاني في البداية بربط المستوطنين بالأرض، ثم جاءت فترة زيادة قيمة الأرض وتحسينها بمختلف الوسائل و في ظل هذا الاهتمام وافق الماريشال "جاك لويس روندون" **Jacques Louis Randon** (1795-1871) في 26 أفريل 1854م كوزير للدفاع على مشروع مرسوم يضمن تنفيذه بنفسه كحاكم عام فيما بعد، فقد خصص التشريع الجديد نظام التنازل المجاني للأرض الزراعية مقابل سند ملكية مؤقت[19].

بدأ سلطات الاحتلال في التفكير في تأسيس المراكز الاستيطانية، فقد أنشأ قانون 19 سبتمبر 1848 عددا من المراكز الاستيطانية في العملات الثلاث: 12 في عمالة الجزائر، 09 في عمالة قسنطينة،و21 في عمالة وهران من بينها مركز خاص بمنطقة سيدي بلعباس[20] ،ثم قام الجينرال "لاموريسيار" قائد منطقة وهران بكتابة تقرير حول أسباب اهتمامه بالمنطقة التي غادرتها قبائل بني عامر فهي تسهل الاتصال بمعسكر في الشرق، وبتلمسان في الغرب، وبالتالي تمكن حماية المراكز الاستعمارية، والتحكم في المنطقة الشاسعة، إضافة لغناها بثروات طبيعية مما

جعل الماريشال "بيجو" يتخذ قرارا اعتبر فيه المناطق التي غادرتها قبيلة بني عامر مناطق تابعة للدولة[21].

وفي غياب سكان المدينة الأصليين، وتطور الأحداث لصالح الفرنسيين سارع الاستعمار لإقامة المدينة الجديدة بأمر ملكي صدر سنة 1847،وذلك بناء على تقارير "لاموريسيار" و"بيجو" للتحكم في طرق المواصلات بين المناطق الغربية. لتحويل هذه الحامية العسكرية إلى مركز استيطاني، ففي رسالة بعث بها لاموريسيار إلى الحاكم العام سنة 1947 ماري الفونس بودو Marie Alphonse Bedeau(1804-1863) ذكر فيها: "**لا بد من تأسيس مدينة هنا وبهذا المكان لأن الناحية أصبحت الموقع المفضل والضروري لنا، نحكم به بلاد القبائل الشاسعة، فهذا المركز السكاني سيكون بمثابة الدعم اللوجستيكي للتجمعات العسكرية العاملة، أما الاحتياطي منها يخصص لدعم تواجدنا بمقاطعة وهران، فمنطقة سيدي بلعباس قريبة من البحر سهلة الاتصال مع معسكر من الناحية الشرقية وتلمسان من الناحية الغربية، حيث تصبح المواصلات مع وهران أكثر أمنا، وقريبة من الصحراء تجعلنا نتحكم بشكل أحسن في الاضطرابات .إنها إستراتيجية للمعمرين...فلمنطقة سيدي بلعباس موقع أساسي في مجموع مؤسساتنا ...لذا نطلب تأسيس مركز استيطاني بالقرب من سهل مكرة مع إمكانية تجفيف المستنقعات الموجودة به**[22].

تشكلت لجنة خاصة مكلفة بتعيين النقاط الهامة لإنشاء مركز سكاني مدني، قدمت اللجنة التشكيلية التالية[23]:

- النقيب "برودون" Prudon : الرئيس، و هو مسئول الهندسة بسيدي بلعباس .
- سنيوري Signorino: رئيس المكتب العربي.

- كامي Camis : مفتش Inspecteur de Colonisation
- فرونسي بريجيت Francy Bregeat : سكرتير

وفي برقية أرسلها الحاكم العام سنة 1847 للقيادة العليا بالجزائر عرض فيها البرنامج المدني والعسكري للتجهيزات العامة التي ينبغي إقامتها مثل التحصينات وتقسيم الأراضي ومد الشوارع والتي اقترح أن تكون بعرض 25 متر تغرس على جوانبها الأشجار ،وتمتد من شرق إلى غرب المدينة لربط الأحياء المدنية والعسكرية مع تشييد بابين اللذين يؤديان إلى وسط المدينة في اتجاه عمودي مع ربطهما بشارع آخر عرضه ما بين 10-12 متر،كما اقترح رئيس المهندسين بتوزيع مختلف المساحات منها 12 هكتار للمؤسسات العسكرية و10 هكتار للإنشاءات المدنية و 11 هكتار للشوارع ،و05 هكتار للتحصينات أي مجموع 42 هكتار[24].

قام "برودون" بعرض مشروعه على الحاكم العام في 10 نوفمبر 1848و يتلخص في : مساحة المدينة 42 هكتار، محاطة بجدار على علو خمسة أمتار حول الجدار خنادق بعرض14 متر و عمق ثلاثة أمتار من مجموع 42 هكتارا،و05 هكتارات مخصصة للتحصين، 16 هكتار للمؤسسات العسكرية،11 هكتار للساحات و الطرق 10 هكتارات للإقامة المدنية، سور يقسم المدينة إلى منطقتين، واحدة مدنية و أخرى عسكرية، أربعة أبواب، واحد في الشمال يحمل اسم باب وهران، في الجنوب باب الضاية، في الشرق باب معسكر، و في الغرب باب تلمسان، و بدأت الأشغال ابتداء من سنة 1849[25] ،توقع المشروع بناء 200 قطعة أرض لإسكان حوالي 2000 ساكن.

بلغ الإنفاق في أشغال التحصينات في الفترة الممتدة بين 1847 إلى 1854 حوالي 317200 فرنك. و قد سمح إنشاء المركز بجلب عدد هام من السكان، ففي نهاية 1848م بلغ عدد العائلات بين 100 و120 عائلة. هذه الوضعية أدت إلى تعيين لجنة أنشأها العقيد"

ميليني" **Mellinet** القائد الأعلى لدائرة سيدي بلعباس و المتكونة من "برودون" رئيس اللجنة،ربتال" Rapatel نقيب المدفعية،قويو" Goyau رائد في الجيش، أيشكار" Eichecker جراح، "ميفرداي" **Meffredey** محاسب .اقترحت هذه اللجنة ضرورة إنشاء مراكز سكانية حول سيد بلعباس فقدم "برودون" مشروع الاستيطان[26].

بلغت مساحة الأراضي المغتصبة حوالي 10.000هكتار مرة واحدة بسهل مكرة،وزعت منها 30 قطع أرضية مجانا،فاستفادت من ذلك السيدة "ريبار"**M^me^ Ripert** سنة 1851، وآخر للسيد "دومارغ" **Doumergue** بسيدي لحسن و أكثر من 400 عائلة تحصلت على قطعة أرضية، منها 15 عائلة ألمانية استقرت في نفس المنطقة .أقيمت هذه المراكز الاستيطانية على أجود الأراضي، وأصبحت مناطق للتوسع الاستيطاني في سهل مكره من خلال موجات سكانية متلاحقة. و بعد عودة قبائل بني عامر من المنفى لم تستطع استرجاع إلا مساحة ضئيلة من أراضيها. لكن لماذا سمحت السلطات الاستعمارية لهم بالعودة ؟ لماذا منحتهم هذا النصيب من الأراضي الزراعية ؟

حسب عناد ثابت " فان أهم الأسباب التي جعلت المستعمر يلجأ إلى هذا الحل ترجع إلى عوامل اقتصادية:

- تمت عملية احتكار أراضي القبائل على معظمها .
- مشكلة نقص اليد العاملة .

تحملت السلطة العسكرية عبئ إدارة المدينة، و استمرت في بنائها منذ 1848 م، وكان عقداء الجيش بمثابة رؤساء البلديات في البداية بسيدي بلعباس أهمهم :" مليني" **Mellinet**" بازايين" **Bazaine** و "روسو" **Rousseau**[27] ، وابتداء من 31 ديسمبر 1856 م، بدأت الإدارة العليا تحاول إشراك المواطنين في التسيير، ومنحت بلدية

سيدي بلعباس الاستقلالية في التسيير، ووضع علي رأسها مفوض مدني، يقوم بوظيفة رئيس البلدية، و أول مفوض للمدينة،" ألفريد أيدني"**Alfred Edné** [28].

بدأ تنفيذ معظم المشاريع خلال فترة ما بين 1848 و 1857، حيث انتهت فيها جل الأشغال العمومية التي تتمثل في إنجاز التحصينات المحيطة بالحي العسكري بين 1848م – 1849،وتحصينات الحي المدني 1850م-1851م، إنجاز أبواب وهران و الضاية 1851م،تلمسان و معسكر 1855،بداية إنجاز ثكنة الفرسان 1848 ثكنة المشاة 1849، السوق المغطى 1854 الكنيسة 1855 [27]،أما المراكز الإستطانية الأخرى فقد تم إنشاء Boukhanefis (بوشبكة حاليا) في 05 ابريل 1849،سيدي إبراهيم 1851،بن يوب وسيدي لحسن 1854[29] ،الأمر الذي أدى إلى تزايد في عدد السكان الأوربيين بعدما كان 516 سنة 1849 أصبح 14456 سنة 1877.

والجدير بالملاحظة أن سنوات 1858-1860 عرفت تراجعا كبيرا للاستيطان في كل التراب الوطني، ويرجع "باستيد" ذلك إلى تغيير الأنظمة الإدارية و الثورات العنيفة التي عرفتها الجزائر إضافة إلى الظواهر الطبيعية المختلفة، كاجتياح الجراد، الزلازل الكوليرا الجفاف الواسع، المجاعة والتيفوس الذي ضرب المستعمرة في هذه الفترة. عكس منطقة سيدي بلعباس التي استمر بها الاستيطان خلال سنة 1858م بفضل التسهيلات والامتيازات، التي نشطت حركة التوطين بالمنطقة، وتواصلت هجرة الأوربيين، ما جعل الاستعمار يؤسس مراكز استيطانية جديدة و توسيع أخرى. فتأسس مركز تنيرة Tenira على طريق الضاية، و تم إعمار "بوشبكة" و "تسالة"، وبيعت أراضي حكومية خلال سنة 1863 ،و تأسست رسميا تجمعات سكانية بسيدي حمادوش les Trembles، زليفة Zelifa سيدي خالد Palissy،فقامت السلطات الاستعمارية بتسهيل المواصلات بين هذه القرى الاستيطانية ومدينة سيدي بلعباس ومدن

أخرى، ففتحت طريق سيدي بلعباس وهران سنة 1858 ثم طريق يؤدي إلى تلمسان عبر أولاد ميمون سنة 1866،ثم باتجاه الضاية وتلاغ في سنة 1865 وشق طريق يربط المدينة بسفيزف سنة 1866[30].

تعقدت الوضعية الاقتصادية والاجتماعية للأهالي بالمنطقة أدى إلى ظهور ابتداء من سنة 1864م انتفاضات ضد المستوطنين التي أحزنت المنطقة و خربتها حسب "باستيد" بسبب قوتها و اقتربت من المراكز الاستيطانية، مما جعل المستوطنون يغادرون قراهم، و يبحثون عن مناطق أكثر أمنا. فإذا أخذنا "تسالة" على سبيل المثال فنلاحظ أن جل المزارع قد أفرغت من سكانها، رغم الدوريات المنتظمة ليل نهار من طرف المستوطنين، الذين لم ينجحوا في توقيف الانتفاضة،ففي 08 أكتوبر 1864 قامت مجموعة من الفرسان يقدر عددها بحوالي 150 فارسا صحراويا مدعمين بأهالي بعض القبائل بالهجوم على المستوطنين بمنطقة "بن يوب" حيث تم إحراق المزارع وقتل العديد منهم ،وفي الفترة نفسها عرفت المنطقة إشعال حرائق هامة ساعدها تواجد رياح "السيروكو" على مناطق "الحساسنة" Hassasna، "أولاد سليمان"**Ouled Sliman** "أولاد ابراهيم" **Ouled Ibrahim** ، و الحزاج Hazedj .

عرفت المنطقة جفافا سنة 1866 أدى ذلك إلى غزو الجراد من الجنوب فخربت محاصيل هامة في النصف الثاني من أبريل 1866 خاصة محصول البطاطا، الخضر، الحبوب والكروم،ولم يستطع الأهالي الصمود أمام هذه الأحداث، خاصة بعدما عرفت المنطقة وباء "الكوليرا" سنة 1867، مثل باقي مناطق الجزائر، فنتج عنها زوال الموارد،ونفوق المواشي،و ارتفاع عدد الوفيات، بسبب الفقر و الجوع حتى وصل الأمر بالأهالي القيام بالسرقة من أجل الزج بهم في السجن مع عائلتهم والحصول على رغيف خبز يومي.

أما في الجانب الاقتصادي فقد كان للزراعة دورا هاما في ضمان أمن المهاجرين من الناحية الغذائية، كما توسعت ملكيات الكولون، فجيروم باستيد" **Jerôm Bastide** (أب ليون باستيد) كان بحوزته قطعة أرض مسقية مساحتها أربعة هكتارات في 12 مارس 1852، وبعد الفوائد التي حصل عليها استطاع امتلاك ستة قطع أرضية أخرى بأسعار ممتازة بين سنتي 1853-1857، وانتقلت الملكية إلى34.03 هكتار.أما بين 1857م-1865 فتوسعت إلى 220 هكتار، وبالتالي تضاعفت ملكياته في فترة وجيزة بست مرات تقريبا[31].

بعد هزيمة فرنسا في حربها ضد بروسيا(أوت 1870–فيفري 1871)وفقدانها للالزاس واللورين وارتفاع في عدد المهاجرين من أرويا عرفت الجزائر تعاظم نفوذ المعمرين بعدما أصدرت سلطات الاحتلال مجموعة من القوانين الخاصة بمصادرة أملاك الجزائريين خاصة بعد انتفاضة المقراني 1871 فجاء نظام البيع بعد قانون 21 جوان1871 ومرسوم 16 أكتوبر 1871 الذي نظم شروط تعمير المستوطنة بالعنصر الفرنسي بواسطة التزام واحد هو الإقامة مدة تسعة سنوات، كما يمكن لصاحب الأرض أن يتنازل عن أرضه لآخر أو يطلب بعد ثلاث سنوات من الإقامة، سند نهائي للملكية (وثيقة تثبت ملكية الأرض) مع دفعه 100 فرنك في الهكتار[32].

شهدت منطقة سيدي بلعباس خلال هذه الفترة حركة استيطانية واسعة نتج عنها توطين عددا كبيرا من الأوربيين الذين وصل عددهم في المنطقة سنة 1877 حوالي 14456 منهم 4343 فرنسيا، و 9686 إسبانيا، مما أدى إلى ارتفاع عدد المراكز الاستيطانية في المنطقة، بحيث بلغت 17 مركزا استيطانيا من بين 54 في الغرب الجزائري، وأنشأ 14 مركزا بين 1870-1880 أي تقريبا مركزين في السنة، مما يعني أن إنشاء أي مركز يمثل حوالي 15 إلى 40 قطعة أرض جديدة تمنح للمستوطنين[33] ،وبداية من سنة 1875م عرف الاستيطان

تطورا هاما من خلال توسيع بعض المراكز، فقد توسعت منطقة سيدي لحسن بحوالي 15 بناية Lots ،عين الحجر و لمطار بـــ 40 بناية، ارتفع عدد البنايات الجديدة خلال 08 سنوات ب 650 بناية، والجدير بالملاحظة أن المنطقة عرفت الكثير من التغيرات الإدارية فقد كانت تابعة لعمالة وهران من سنة 1844 إلى 1849 ،ثم أصبحت دائرة ابتداء من 27 جويلية 1875، مقسمة إلى خمسة بلديات كاملة الصلاحيات و هي: سيدي بلعباس، سيدي لحسن، تسالة، سيدي حمادش، سيدي إبراهيم، و بلديتين مختلطتين مكرة و بوشبكة.

تبنت سلطات الاحتلال منذ الوهلة الأولى لدخولها الجزائر على وضع سياسة التمركز في المناطق الإستراتيجية لإنجاح مخططاتها العسكرية والاقتصادية وطرد العنصر المحلي وتعويضه بالعنصر الأوربي، ومن هذا المنطلق كانت منطقة سيدي بلعباس ذات أهمية بالنسبة لفرنسا وذلك من خلال بناء مراكز عسكرية بالنظر إلى الموقع الهام الذي تحتله بتوسطها للمنطقة الغربية مما يسمح بالتحكم في طرق المواصلات، كما سعت إلى نفي تاريخ المنطقة وان الاستعمار هو سبب وجودها، غير أن الشواهد الأثرية دحضت تلك الادعاءات، بالإضافة إلى المقاومات الشرسة التي قام بها السكان بداية من مقاومة الأمير عبد القادر إلى غاية الثورة التحريرية، وكذلك أن بناء المدينة لم يكن موجه للسكان الأصليين بقدر ما كان هدفه توطين العنصر الأوربي بسلب الأراضي من أصحابها، ومصادرة الأملاك عبر سلسلة من التشريعات القانونية التي تخدم المصالح الفرنسية.

خاتمة:

تبنت سلطات الاختلال منذ الوهلة الأولى لدخولها الجزائر على وضع سياسة التمركز في المناطق الإستراتيجية لإنجاح مخططاتها العسكرية والاقتصادية وطرد العنصر المحلي وتعويضه بالعنصر الأوربي، ومن هذا المنطلق كانت منطقة سيدي بلعباس ذات أهمية بالنسبة لفرنسا

وذلك من خلال بناء مراكز عسكرية بالنظر إلى الموقع الهام الذي تحتله بتوسطها للمنطقة الغربية مما يسمح بالتحكم في طرق المواصلات، كما سعت إلى نفي تاريخ المنطقة وان الاستعمار هو سبب وجودها، غير أن الشواهد الأثرية دحضت تلك الادعاءات، بالإضافة إلى المقاومات الشرسة التي قام بها السكان بداية من مقاومة الأمير عبد القادر إلى غاية الثورة التحريرية، وكذلك أن بناء المدينة لم يكن موجه للسكان الأصليين بقدر ما كان هدفه توطين العنصر الأوربي بسلب الأراضي من أصحابها، ومصادرة الأملاك عبر سلسلة من التشريعات القانونية التي تخدم المصالح الفرنسية.

وبذلك فإن كتابة التاريخ الاستعمارية بالجزائر بصفة ومنطقة سيدي بلعباس أكثر من ضرورة من خلال استغلال الأرشيف المحلي والأجنبي الموجود بفرنسا، وتوجيه الطلبة الدكتوراليين نحو الدراسات المونوغرافيا، وعقد الملتقيات والندوات الدراسية داخل المؤسسة الجامعية، كما لا يخفى أهمية المتحف الوطني في إرساء ثقافة البحث في التاريخ القديم والحديث والمعاصر، وطباعة كل الأعمال المنجزة .

الهوامش:

1- عقدت معاهدة تافنة في 30 مايو 1837 بين الأمير عبد القادر و الجنرال بيجو، بعد الهزائم المتكررة للجيش الفرنسي، هذه المعاهدة سمحت للأمير ببسط سلطته على كل سهول وهران. و للمزيد من المعلومات انظر إلى كتاب: أبو القاسم سعد الله : أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر : القسم الأول صفحة 135 إلى 138.

2-Leon Bastide,**Bel-Abbes et son arrondissement** .Oran. Imp. Perrier .1880. Page 17.

[3] - Léon Bastide ,op.cit,p 18.

[4] - Pierre Dufour (Historien Militaire) "Villes et Régions" – **in revue historien** Mai- Juin 2002 Page 52.

[5] - C-H Churchill ,**La vie d'Abdelkader** ,Alger ,ENAL ,1991,p 68.

6-كاتب ومسرحي فرنسي ولد في 24 جويلية 1802 بـــ فيلار كوتيراس وتوفي قي 05 ديسمبر 1870 بمنطقة أمو دوبوي .

7-George Yver, **correspondance capitaine Dumas consul a mascara (1837-1839)**, Typographie, Adolphe Jourdan, imprimerie-librairie de l'université, place du gouvernement, Alger, 1912, p170.

[8]- Léon Adoue, **la Ville de Sidi Bel Abbes، Histoire، Légende** ، Anecdotes, Sidi Bel Abbes. Imp. René Roidot 1927. Page 37 et 38.

[9]-شخوم سعدي،"منطقة تسالة في كتب التاريخ المغاربية"،كتاب جماعي حول منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية (1830-1962)،مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ،الجزائر،2005،صص20-27.

[10]–ابن خلدون عبد الرحمان،كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،الجزء السادس،دار الكتاب اللبناني،لبنان،1959،ص256.

[11]- Leon Adoue,op.cit,p39.

12- منصوري خديجة ،"**سيدي بلعباس إبان الاحتلال الروماني**"،الملتقى الوطني حول منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830-1962 ،جامعة جيلالي ليابس-سيدي بلعباس،الجزء الأول ،مكتبة الرشاد للطباعة والتوزيع النشر،الجزائر،2005،ص16.

[1]3-- Leon Adoue, op.cit,p, p31.

[1]4- Ibid, p30.

[15]-Ibid, p29.

16-Léon Adoue, op.cit, p40.

[17]-Azane Paul, **la fondation des villes D'Oranie**" in B.S.G APO. Tome. LXV II 1947, page 9.

[18]-Léon Bastide, **Bel-Abbes et son arrondissement** ,typographie et lithographie AD ,Oran, Imp. Perrier .1881.,p 34

[19]- Redouane Ainad .Tabet, Histoire **D'Algérie. Sidi bel Abbes de la colonisation à la guerre de libération en zone 5 wilaya v. 1830-1962** ENAG éditions Alger, 1999, p75.

[20]- Léon Adoue ,op.cit,p 44.

[21]-Ibid,p44.

[22] -Leon Bastide, op.cit, p25.

[23] -Malverti Xavier, les officiers du génie et le dessin de villes en Algérie(1830-1870),**Revue des mondes musulmans et de la mediterranee**,N73-74 ?1994, pp229-244.

[24]- Léon Adoue, op.cit,p 46.

[25]- Leon Bastide, op.cit, p49.

[26]- Léon Adoue ,op cit ,p65.

[27]-Ibid,p69.

[28]-التأسيس الرسمي لمدينة سيدي بلعباس كان في 05 جانفي 1849.

[29]- Léon Bastide ,**Précis de L'histoire et de la géographie de Bel-Abbes et de son arrondissement** , Oran, Imp. Perrier. 1881 pages 07.

[30] - Ainad Tabet,op.cit,p120.

[31]- Ainad Tabet, op.cit, p81.

[32] - Léon Adoue, la Ville de Sidi Bel-Abbes l'agriculture ; l'industrie ; le commerce et les banques, in **revue municipale de Sidi Bel-Abbes** n°13 Oct، Nov 1958 page 05.

[33] - Leon Bastide,op.cit,p 103.